

جعفر أبو التمن

1945 – 1881

جعفر أبو التمن هو من أكثر الشخصيات العراقية التي تجتمع فيها العناصر الأساسية للشخصية الوطنية العراقية بكل مميزاتةا. وهو رأي يمكن لأي باحث في التاريخ العراقي الحديث أن يستخلصه من سيرة هذا الزعيم الكبير منذ بدايات شبابه حتى اللحظة الأخيرة من حياته. وقد استخلصته شخصياً مما قرأت وسمعت عنه ممن عاصروه وممن اهتموا بدراسة شخصيته، وبقراءة مواقفه السياسية والاجتماعية. وهي قراءات متعددة شملت سيرة أبي التمن في العهود المختلفة من تاريخ العراق منذ مطلع القرن العشرين، سواء في المرحلة العثمانية أم في مرحلة الإنتداب البريطاني أم في المرحلة التي قادت العراق إلى استقلال نسبي عن الإمبراطورية البريطانية في عهد الملك فيصل وشقيقه الملك غازي. إلا أن البداية في تعرّفي على شخصية هذا الزعيم إنما كانت في عام 1947 عندما تعرفت إلى ابنه عزيز. وكانت قد نشأت بيني وبين عزيز صداقة عميقة وحميمة استمرت حتى سقوطه شهيداً في الإنقلاب البعثي الدموي في مطلع عام 1963 ضد حكم عبد الكريم قاسم وجمهورية 14 تموز. فقد كان لتلك العلاقة مع عزيز أبو التمن دور تمهيدي وأساسي في تعميق معرفتي بوالده جعفر وبالأساسي من الخصال الوطنية والإنسانية التي اتسمت بها شخصيته وطبعت سيرته بطابعها.

ومعروف في تاريخ العراق الحديث أن جعفر أبو التمن كان من أبرز أبطال ثورة العشرين الشهيرة التي واجه بها العراقيون الإحتلال البريطاني لبلدهم بقيادة زعامات وطنية مدنية ودينية وزعماء عشائر. وكان أبو التمن من أكثر زعماء تلك الثورة صلابة في مواجهة الإحتلال البريطاني. وكان في الوقت عينه من أكثرهم استقلالية في مواقفه السياسية عن كل المحاولات التي كانت ترمي بصيغ مختلفة إلى تكبيل العراق بمعاهدات عسكرية وأمنية وسوى ذلك من مشاريع كانت تفقد العراق سيادته. وهي مواقف لأبي التمن برزت في تمايزه باسم حزبه (الحزب الوطني العراقي) عن مواقف بعض التنظيمات السياسية وبعض السياسيين. كما برزت في تمايزه عن

المشاريع السياسية المختلفة التي كان للإنجليز دور مباشر أو ضمني في صنعها. وهي المواقف التي قادته إلى الإختلاف مع بعض أصدقائه من السياسيين وإلى الخروج من التنظيمات والتجمعات السياسية التي كان يلتقي فيها معهم، بعد أن كان يكتشف المخاطر التي تنطوي عليها سياساتهم بالنسبة إلى وطنه العراقي. ورغم أنه وافق بعد اعتراض وتردد حازمين على تولي الأمير فيصل بن الحسين الملك على العراق، إلا أنه ظل يعتبر نفسه في صف المعارضة لسياسات فيصل. لكنه في معارضته لفيصل لم يكن قاطعاً في كل الظروف. بل هو كان يفرق بين ما كان يراه في سياسة الملك من صحة في بعض المواقف وفي بعض المبادرات السياسية والإقتصادية والإجتماعية، وبين السياسة العامة للملك التي كان يرى أبو التمن أنها كانت أقرب إلى التعاون والتواصل مع السياسة البريطانية. وكان في القرار الذي اتخذه بتشكيل الحزب الوطني العراقي يريد إعطاء المعنى الحقيقي لانتمائه الصادق إلى الوطن من دون الإلتباسات التي سادت في مواقف معظم الأحزاب والقيادات السياسية في زمانه. إلا أن سيرته العامة، ومواقفه السياسية وتردداته وتنقلاته من تحالف إلى تحالف آخر، إنما تشير جميعها إلى أنه كان عفويّاً وبسيطاً إلى حدود السذاجة في بعض الأحيان. ويتضح من سيرته تلك أنه كان يختلف عن معظم سياسيي عصره في ممارساتهم السياسية التي كان يغلب عليها الدهاء والمساومات. وفي مرحلة متأخرة من حياته وجه إليه خصومه تهمة الشيوعية. ورغم أنه كان ملتزماً بدينه وبشعائره فإنه رد على ذلك الإتهام بشجاعة حين قال: "إذا كان الدفاع عن الفقراء والمظلومين يعتبر شيوعية، فلا بأس عندي من أن أواجه بهذا الإتهام".

ولد جعفر أبو التمن في بغداد في عام 1881 في محلة صبابيغ الآل من أسرة عراقية قديمة. بلغ جده الحاج داوود في أواخر العهد العثماني شأناً كبيراً في الجاه والنزاهة والتقوى. نشأ جعفر في كنف جده وتعلم في الكتاتيب. ثم درس اللغة العربية والدين على أيدي مدرسين خصوصيين شأنه شأن أقرانه من أبناء البيوتات الذين كانوا

يتخرجون من إدخال أبنائهم في المدارس العثمانية. ثم اعتمد هو على نفسه بتعميق ثقافته. فنشأ ذا ثقافة عربية دينية. وساهمت مجالس الأدب والشعر في بيت جده في تكوين شخصيته الإجتماعية والتجارية ثم السياسية فيما بعد. فقد أثار انتباه الحاضرين منذ شبابه الباكر. فأعجبوا بمنطقه السليم وبطريقة تفكيره التي برز فيها ميله نحو التجديد في كثير من القضايا الإجتماعية والدينية. لم يتجه جعفر أبو التمن إلى الوظائف الحكومية. فهو كان سليل أسرة تجارية عريقة. لذلك فضل أن يعمل في كنف جده الذي كان يثق به أكثر من باقي أفراد أسرته. وكان يعتمد عليه في بعض أمور تجارته.

عندما أنشئت المدارس الحديثة لم يكن للشيعة نصيب فيها بسبب الموقف المعادي للشيعة لدى السلطات العثمانية. إذ كان العثمانيون يخشون من صعود الشيعة إلى المراكز الحكومية الأساسية. وكان الشيعة في عدائهم للسلطنة العثمانية ينطلقون من موقع وطني ومن موقع ديني ومذهبي. ولم يكونوا يعتبرون أنفسهم جزءاً من تلك السلطنة. يضاف إلى ذلك أن المرجعيات الدينية الشيعية كانت تحرم دخول أبنائها في المدارس باعتبار أن تلك المدارس كانت في نظرهم مفسدة للدين. لذلك اقتصر تعليم أبناء الطائفة الشيعية على مدارس النجف وكربلاء والكاظمية لتعليم اللغة العربية والعلوم الدينية.

في أعقاب الإنقلاب الذي قاده حزب الإتحاد والترقي التركي في السلطنة العثمانية وإعلان الدستور العثماني الجديد في عام 1908 تبدلت نظرة الدولة العثمانية للشيعة. فسعت مجموعة منتورة من الزعماء الشيعة للحصول على إجازة لتأسيس مدرسة حديثة. وكان في مقدمة تلك المجموعة جعفر أبو التمن. وكانت دار جده الحاج داوود كالعادة مركزاً لتجمع الشباب والشيوخ للبحث في جميع شؤون المجتمع. وكان من بين تلك الشؤون تأسيس تلك المدرسة الحديثة.

اهتم جعفر أبو التمن ومجموعته بجعل المدرسة التي أنشأوها تقوم بتعليم اللغات الأجنبية. وكانوا يرمون من وراء ذلك إلى التنافس مع مدرسة الاليانس اليهودية التي كانت تخرج كتاباً يعملون لدى التجار المسلمين نظراً لمعرفة هؤلاء باللغات الأجنبية. وكان بعض أولئك اليهود يشاركون التجار المسلمين في أعمالهم التجارية. وكانوا يشاركونهم في السعي للسيطرة على السوق التجاري بشكل عام.

لكن لإنشاء تلك المدرسة الجعفرية قصة تروى. فقد كان لا بد من فتوى شرعية لأخذ القرار بإنشائها نظراً لأن العامة كانت، بتأثير من المرجعيات الدينية، تعتبر الدخول إلى المدرسة الحديثة أشبه بالكفر. لذلك كان لا بد من الإستعانة بعالم ديني متجدد من علماء الشيعة المعروفين لانتزاع فتوى تلغي طابع التحريم عنها. تبنى السيد محمد سعيد الحبوبي الفكرة وساعد في إقناع المعارضين من أبناء الطائفة الشيعية على ارتياد المدرسة. وكان دار الحاج داوود أبو التمن مركزاً للقاءات التي جمعت العاملين من أجل تأسيس المدرسة. ولأن الفكرة كانت تحتاج إلى تمويل فقد استطاع جعفر أبو التمن إقناع جده الحاج داوود بتبني الفكرة. واستناداً إلى موافقة جده على تلك الفكرة وجه جعفر أبو التمن الدعوة إلى عدد من الشخصيات الشيعية المعروفة للإجماع ولاتخاذ القرار بتأسيس المدرسة. وتشكلت في الإجماع هيئة تأسيسية للمدرسة كان جعفر أبو التمن أمين صندوقها. وقد بذل أبو التمن جهداً خاصاً لإقناع بعض المرجعيات الدينية في كربلاء والنجف للحصول منها على فتاوى تحت أبناء الطائفة على الإقبال على التعليم في تلك المدرسة. ونشر أبو التمن بتوقيعه كأمين للصندوق في المدرسة بياناً يؤكد فيه بـ"جواز دخول أولاد الجعفرية إلى المكاتب لتعليم العلوم والمعارف واللغات المختلفة التي تمس الحاجة إلى تعلمها... مع التحفظ على القواعد الإسلامية وعقائد الجعفرية..".

كان تأسيس المدرسة الجعفرية بداية نشاط أبو التمن الإجتماعي. فقد تحولت المدرسة في فترة لاحقة إلى منتدى وطني سرّي للعناصر الوطنية. وقد ظل أبو التمن

يتولى أمانة الصندوق في المدرسة حتى عام 1920. ثم أناطت به الثورة التي قامت في ذلك التاريخ ضد الإنكليز مهمة الإستمرار في دوره في المدرسة كعضو في هيئتها الإدارية حتى عام 1927. وقد ساعدته مهماته في المدرسة، إضافة إلى مزاياه الشخصية، في التحول تدريجياً إلى شخصية مرموقة في المجتمع وفي البلاد.

في المرحلة التي سبقت قيام ثورة العشرين كان لأبي التمن دور في المعارك الوطنية ضد العثمانيين أحياناً، ثم ضد الإنكليز، ابتداء من 1914 حتى عام 1920. وكان أبو التمن واحداً من قادة تلك الثورة التي كان كبير مجتهدي الشيعة الشيرازي أحد أبرز أبطالها. وإذ تعرض أبو التمن بسبب مواقفه لمطاردة سلطات الإحتلال له فقد لجأ قسراً إلى الحجاز مع عدد من زعماء الثورة لفترة من الزمن.

استمرت الثورة عاماً كاملاً بين كرّ وفرّ. وانتهت بالبحث عن حل يقضي باختيار ملك للعراق. وتم ذلك في مؤتمر عقد في القاهرة في عام 1921 تقرر فيه اختيار الأمير فيصل بن الحسين ملكاً على العراق بالإتفاق مع الإنكليز. ولم يكن أبو التمن راضياً عن ذلك الإختيار. وهكذا انتقل العراق إلى عهد جديد بتتويج فيصل ملكاً. فعاد أبو التمن من الحجاز إلى العراق. واستقبل لدى عودته استقبالاً حاشداً. وشرع فور عودته بتأسيس "الحزب الوطني العراقي" لإعلان تمايزه عن الأحزاب والحركات التي كانت قد نشأت. وبعضها كان قد تم تأسيسه بإيحاء من الإنكليز.

لا بد هنا من التوقف عند بعض خصائص ثورة العشرين. وهو تقييم أستشهد به من الباحث العراقي حامد الهمداني. يقول الباحث: "لقد امتد لهيب الثورة إلى كل بقاع الوطن. وانغمر فيها عدد كبير من رجال الدين وشيوخ العشائر والمتقنين والعمال والفلاحين الشجعان الذين كانوا عماد الثورة. وكانت الثورة، على الرغم من التأخر الذي سببه الإستعمار العثماني الطويل، على درجة عالية من التنظيم والتخطيط والدقة. ويستدل على ذلك من التوجيهات التي كانت تصدرها قيادات الثورة إلى القوات المشاركة فيها والتي جاء فيها: 1- يجب على كافة الأفراد أن يفهموا بأن المقصود من

هذه الثورة إنما هو طلب الإستقلال التام. 2- يجب أن يهدف الجميع للإستقلال في كل ميادين القتال. 3- يجب التمسك بالنظام ومنع الإعتداء. فلا نهب ولا سلب ولا ضغائن قديمة ولا أحقاد. 4- يجب تأمين الطرق وحفظ المواصلات بينكم وبين مناطق الثورة. 5- بذل الهمة لحفظ الرصاص. فلا يجوز إطلاقه في الهواء بدون فائدة. 6- يجب الإعتناء بالأسرى ضباطاً وجنوداً، إنكليزاً كانوا أم هنوداً. 7- المحافظة على أعمدة الهاتف والأسلاك لضمان استمرار الإتصالات. 8- الإهتمام بقطع السكة الحديدية ونسف الجسور لمنع قوات الإحتلال من استخدامها. 9- الحفاظ على كافة وسائل النقل التي تقع في أيدي قوات الثورة والإستفادة منها. 10- المحافظة على الأسلحة المصادرة من العدو وإدامتها لغرض استخدامها ضده. 11- عند تحرير أي مدينة يجب الإهتمام بتشكيل إدارة وطنية لها والإهتمام بالأبنية الحكومية وعدم هدمها أو إحراقها والمحافظة على الوثائق فيها. 12- المحافظة على المستشفيات وأدواتها وأجهزتها والأدوية الموجودة فيها. 13- الرفق بالجرحى وإسعافهم والإهتمام بهم والعمل على إنقاذ حياتهم. هذه هي الوصايا التي عممتها قيادة الثورة على قواتها. وهي تمثل أرقى درجات التنظيم في إدارة شؤون الثورة والحرص على سمعتها والتخلي بالخلق السامي في معاملة الأسرى والجرحى والإهتمام بمرافق البلاد من عبث العابثين. وهي تدل دلالة أكيدة على الشعور العالي بالمسؤولية".

في الفترة التي أعقبت تولي الملك فيصل الحكم في العراق في عام 1921 نشب خلاف في السعودية بين عبد العزيز بن سعود وآل رشيد انتهى بانتصار ابن سعود الذي سرعان ما استولى على كامل الأراضي التي تعرف اليوم بالمملكة العربية السعودية. ونصب نفسه ملكاً عليها بمساعدة الوهابيين. وأزىح شريف مكة الحسين بن علي من موقعه السابق فيها. إلا أن الوهابيين سرعان ما قاموا بهجوم في اتجاه الحدود العراقية لتوسيع رقعة سيطرتهم. الأمر الذي استتفر القوى السياسية وأبناء العشائر والمرجعيات الدينية الشيعية. وقد تمت الدعوة إلى مؤتمر في كربلاء تجمع

للإشتراك فيه حوالي 200 ألف نسمة تحت شعار الدفاع عن حدود العراق وعن استقلاله في مواجهة الوهابيين. وكان لجعفر أبو التمن دور فعال في الاجتماعات التمهيدية للمؤتمر. وفي الجلسة الرئيسية التي عقدت في دار الشيخ الشيرازي افتتح جعفر أبو التمن الجلسة بإلقاء كلمة بالنيابة عن الشيخ مهدي الخالصي أحد زعماء ثورة العشرين. وأكد في كلمته على أن المسألة التي يجتمعون من أجلها هي المسألة التي تتصل بمواجهة الوهابيين وبالدفاع عن المراقد المقدسة التي كان ذلك الهجوم يستهدفها. ورغم أن الهدف المباشر من المؤتمر كان مواجهة الوهابيين إلا أنه كان يرمي في الوقت عينه إلى تنبيه الرأي العام العراقي إلى الخطر المتمثل بالمعاهدة العراقية البريطانية. ومعروف أن المعاهدة المذكورة كانت ترمي إلى وضع صيغة قانونية للإنتداب البريطاني على العراق. إلا أن الحكومة العراقية كانت تعتبر تلك المعاهدة تنظيماً للعلاقة بين دولتين متكافئتين. أما قادة الحركة الوطنية فقد كانوا ضد المعاهدة من حيث المبدأ. وقد أعد جعفر أبو التمن ومعه بعض زعماء تلك الحركة قائمة بالمطالب الوطنية. وأشاروا إلى احتمال اعلان خلع الملك إذا هو لم يعمل على تحقيقها. وبعد المفاوضات الطويلة بين الحكومة والملك والزعماء الوطنيين تم الإتفاق على عدم ذكر الإنتداب في المعاهدة. فعادت العلاقات إثر ذلك إلى طبيعتها بين أبي التمن والملك فيصل. وتم تعيينه وزيراً. إلا أن معارضة المعاهدة ظلت برغم ذلك أمراً أساسياً في سياسة أبي التمن وفي سياسة عدد من زعماء الحركة الوطنية. وقادت أبا التمن مواقفه المتشددة من المعاهدة إلى الإعتقال والنفي مع بعض زعماء الحركة الوطنية إلى الخارج. لكنه عاد من المنفى بعد فترة مع أولئك الزعماء واستأنفوا نضالهم كل منهم من موقعه وعلى طريقته. لكن أبا التمن اتخذ في مسيرته النضالية مواقف ثابتة من السلطة الوطنية ومن الإنكليز. وكان الثابت الدائم في مواقفه حتى وهو في مواقع مسؤولية أحياناً، بما في ذلك عندما انتخب عدة مرات إلى المجلس



النيابي، هو موقفه من المعاهدة التي كان يرى فيها وفي محاولات تعديلها انتقاصاً من حرية العراق ومن سيادته ومن استقلاله.

كان "الحزب الوطني العراقي"، حزب أبي التمن، يتوقف عن النشاط أحياناً ثم يعود إلى النشاط من جديد، ليس فقط بفعل الضغوط التي كان يواجهها من السلطات بل كذلك بفعل ما كان يحصل من خلافات داخل صفوف قيادة حزبه. لكن أبا التمن عمد في عام 1928، حين أعيد تشكيل الحزب في واحدة من المرات التي عاد فيها إلى النشاط ودخول عناصر جديدة إليه، عمد إلى تطوير مواقفه في الخطاب الذي ألقاه في افتتاح أعمال الحزب. فأضاف بنوداً جديدة إلى مهمات الحزب تجمع بين المطالبة بالإستقلال وبين العمل من أجل إصلاحات تشمل التعليم والزراعة وتوزيع الأراضي على الفلاحين. كما تشمل العمل لتأسيس النقابات التي تسعى لتحسين شروط عمل وحياة العمال. واعتبر أبو التمن في أساس برنامجه أن من شروط بناء الوطن تكوين جيش وطني قادر على حماية استقلال البلاد.

غير أن أبا التمن أعلن اعتزاله العمل السياسي إثر الخلاف الذي نشأ بينه وبين زملائه في الحزب الوطني في عام 1933. لكن اعتزاله ذلك لم يكن ثابتاً وقاطعاً. فحين تأسست "جماعة الأهالي" انضم إليها بعد تردد طويل تلبية لرغبة عدد من أصدقائه الوطنيين الشباب. وكان في مقدمتهم أحد المؤسسين لتلك الجماعة صديقه عبد القادر اسماعيل الذي انتهى به المطاف للدخول في الحزب الشيوعي العراقي في المرحلة التي أعقبت تأسيس الحزب في عام 1934. كما كان من بين أولئك الأصدقاء عبد الفتاح ابراهيم ومحمد حديد اللذان أصبحا فيما بعد من كبار الوجوه الوطنية والديمقراطية في العراق. وانضم في وقت لاحق إلى الجماعة كامل الجادرجي الذي سرعان ما تحول إلى الزعيم الأساسي للجماعة لدى تشكيل "الحزب الوطني الديمقراطي" وظل زعيمه على امتداد حياته.

وكان من مفارقات حياة أبي التمن السياسية أنه دخل أو أدخل في مغامرات سياسية كان من بينها إنقلاب بكر صدقي العسكري في أواسط ثلاثينات القرن الماضي. وهو انقلاب لم يعيش طويلاً. كما شارك أبو التمن في نشاطات سياسية وفي تحالفات مع بعض السياسيين بمن فيهم رؤساء حكومات، سرعان ما كان يخرج منها جميعها بخيبات جعلته أكثر من مرة يعود إلى اعتزاله العمل السياسي. وظل على ذلك النحو في البحث عن التحالفات والمواقف السياسية التي كان يتصور أنها تساعد في تحقيق البرنامج السياسي الذي امتزج فيه الوطني بالإقتصادي والإجتماعي إلى أن غادر الحياة في عام 1945. وأحدثت وفاته ضجة سياسية في العراق وخارج العراق لما كانت تتميز به شخصيته وسيرته من تعبير حي عن الموقف الوطني الثابت والراسخ في الإنتماء إلى وطنه العراق وفي نضاله الثابت من أجل تحقيق الإستقلال الكامل لبلده وتأمين كل شروط السيادة والحرية له والسيادة لشعبه.